

رحلتان أندلسيتان الى القاهرة

الرحلة وسيلة الانسان لكسب المعرفة والتعرف على البيئة والانسان منذ أقدم العصور . وما تزال الرحلة من أنجح وسائل الانسان في الحصول على المعرفة ولهذا السبب حظيت الرحلة باهتمام القدماء والمحدثين على حد سواء ، كما احتفل العلماء بمدى ما قدمته الرحلة من اسهامات ساعدت على اكتشاف البيئة والتعرف على نشاط الانسان في رحابها . وتسابق العلماء والباحثون على تقديم الأوصاف الاحتفالية التي أسبغوها ، بكرم شديد ، على الرحلة .

وعلى الرغم من أنه كانت ، وما تزال ، للرحلة جوانبها المشينة والمظلمة ، مثل التجسس ، والعدوان على الآخرين ، والاستعمار ، والاستيطان ، والتخريب.. وما الى ذلك – نقول أنه على الرغم من هذا الجانب المظلم للرحلة ، فإن اشراقاتها الايجابية قدمت خدمات جليلة للانسانية جمعاء ، وللانسان الفرد أيضا .

لقد كانت الرحلة الأب الشرعى للجغرافيا ، كما قدمت اسهامات هامة في نشأة وتطور علوم انسانية واجتماعية أخرى ، مثل الاثنوجرافيا ، والانثروبولوجيا ، والتاريخ الاجتماعى .. وغيرها . بيد أن أهم مساهمات الرحلة في تصورنا ، جاءت من خلال طرح معرفة الانسان بالانسان . ذلك أن الرحلة تكشف عن حال يتعرف فيها الانسان بالآخر ، ويصبح أكثر استعدادا للاعتراف بوجود هذا الآخر والتعاون معهم . لقد كانت عين الرحلة العربية دائما بمثابة آلة التصوير التى تسجل ما ألفه الناس واعتادوه بحيث حسبوه غير جدير بالملاحظة ، وهو ما يعنى أن الرحلة قدمت لنا الكثير من المادة الخام التى قامت على أساسها دراسات التاريخ الاجتماعى ، والاثنوجرافيا ، والانثروبولوجيا ، فضلا عن فروع الدراسات الاجتماعية الأخرى .

لقد بدأ تريخ الرحلة مع تاريخ الانسان نفسه ، ربما بقصد البحث عن مصادر الرزق التى جعلت حركة الاقوام وهجرات العصور القديمة مسألة ملحوظة في تلك الفترة السحيقة من تاريخ الانسانية . وفي هذه الفترة اختلط الدافع الاقتصادى والعسكرى بحوافز الكشف والمعرفة على نحو يصعب تحديد مداه . وهذه الورقة لا تهتم بالرحلة الهجرة التى كانت حركة على مستوى اجتماعى

شامل تواترت أمثلة عديدة منها على مر التاريخ حتى الآن ، وانما تهتم بدراسة نماذج من الرحلة الفردية التى بدأت هى الاخرى فى فترة باكرة من تاريخ الانسانية .

ويتركز اهتمامنا - بالرحلة الفردية - على فترة تمتد فيما بين القرن السادس والقرن التاسع للهجرة (١٢ - ١٥ م) زمانا ، وفى مساحة لا تتعدى حدود مدينة القاهرة ، آنذاك ، مكانا .

وفى تقديرنا أن اختيار الفترة الزمنية يقوم على مشروعية علمية واضحة ، إذ أن تلك الفترة تعتبر من أهم النقاط الفارقة فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية من ناحية ، ومن أكثر المراحل سخونة فى تاريخ العلاقات بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الغربية الكاثوليكية من ناحية أخرى . فضلا عن أن الرحالة الذين اخترناهم نماذج لدراستنا فى هذه الورقة كانوا فى وضع يسمح لهم بالتعرف على حضارتين فى حال من التصادم والتفاعل .

ففى السنة الأخيرة من القرن الحادى عشر (١٠٩٩ م) توجت الحملة الصليبية الاولى نجاحها باحتلال مدينة بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين ، وعلى مدى قرنين من الزمان تقريبا ، ظلت الارض العربية فى فلسطين وأعالى الشام والجزيرة ، ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وشمال أفريقيا ميدانا للصراع المسلح بين المستوطنين الصليبيين وظهيرهم المساند فى أوربا من جهة ، وسكان المنطقة العربية من جهة أخرى . وبعد نهاية الوجود الصليبي سنة ١٢٩١ م ، استمر الصراع قائما فوق مياه البحر المتوسط وجذره ، وعلى سواحله حتى نهاية العصور الوسطى حين اتخذ أشكالا جديدة .

وفى هذه الفترة أيضا تعرض العالم الاسلامى لضربات موجعة من الشرق على أيدي المغول الذين نجحوا فى اجتياح عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كما كانت حركة الاسبان المسيحيين تحرز تقدما واضحا على حساب القوى الاسلامية انتهى بانتصار المسيحيين نهائيا سنة ١٤٩٢ م .

وعلى الرغم من كل هذا ، وربما يكون بسببه أيضا ، استمرت الرحلة بين الغرب الاوربى والشرق العربى الاسلامى ، وكانت القاهرة أحد المقاصد والاهداف الهامة لهذه الرحلة . ولا غرو ، فقد تبلور الموقف العربى الاسلامى ضد الصليبيين فى جبهة موحدة مركزها القاهرة التى حولها صلاح الدين الايوبى الى عاصمة لدولته الشاسعة بعد أن كانت عاصمة للخلافة الفاطمية . ومن المهم أن نشير الى أن هذا التحول لم يكن تحولا سياسيا فقط فى دور القاهرة ، ولكنها كانت تحولا اجتماعيا واقتصاديا أيضا فى تاريخ العاصمة المصرية . فطوال العصر الفاطمى كانت القاهرة مقر الحكومة ، ومركز الدولة الادارى

والسياسى ، والمعقل الرئيسى لنشر الدعوة الشيعية الاسماعيلية ، على حين كانت الفسطاط عامرة بالناس الذين جعلوا منها قصة الديار المصرية ومركز النشاط الاقتصادى والصناعى والعلمى . وعلى الرغم من أن القاهرة قد فتحت أبوابها أمام الناس عقب استيلاء صلاح الدين على السلطة فى مصر ، فقد ظلت الفسطاط هى المدينة التى اكتظت بالسكان ، وتركزت بها الحرف والصناعات والاسواق حتى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م عندما انتقل السلطان الكامل الايوبى الى القلعة التى صارت مقر الحكم . ومنذ ذلك الحين أخذت الانشطة الاقتصادية والاجتماعية تنتشر فى القاهرة (١) .

ومن ناحية أخرى ، بدأت الاهمية السياسية للقاهرة تتصاعد مع مرور الزمن حتى صارت العاصمة الفعلية للعالم الاسلامى فى عصر سلاطين المماليك بعد أن أحيا السلطان الظاهر بيبرس الخلافة العباسية احياء شكلياً سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وبعد أن أصبحت موئلاً للمهاجرين من تفاقم الاحوال فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه على السواء . ولهذا ظلت القاهرة هدفاً للرحالة المسلمين والرحالة الاوربيين طوال تلك الفترة ، وان اختلفت دوافع الرحالة المسلمين عن دوافع الرحالة الاوربيين بطبيعة الحال .

لقد تنوعت دوافع الرحالة المسلمين ما بين الحج وطلب العلم ، وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى أهمية الرحلة فى طلب العلم ، اذ قال « .. والرحلة لا بد منها فى طلب العلم ، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال (٢) ، كذلك كانت التجارة من العوامل الهامة الدافعة الى الرحلة فى التراث العربى الاسلامى . فمن المعلوم أن التاجر العربى المسلم كان شخصية معروفة فى سائر أنحاء العالم المتحضر آنذاك . بيد أنه كان من بين التجار علماء تركوا لنا نفائس يفخر بها تراث الحضارة العربية الاسلامية ، وتقف رحلة التاجر سليمان السيرافى ، فوق صفحة المحيط الهندى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، مثالا فذاً على ذلك ، كما أن ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) ترك سفره الهائل «معجم البلدان» دليلاً على أن رحلة التاجر العربى المسلم لم تخل من العلم ، اذ كان ياقوت يقوم برحلاته بهدف التجارة أساساً (٣) . وهناك أسباب أخرى متعددة للرحلة عند المسلمين ، بعضها شخصى ، وبعضها كانت سفارات بتكليف من أولى الامر ولسبب أو لآخر . على أن أهم

(١) جومار ، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، (نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد) ، القاهرة ١٩٨٨ م ، ص ٢٨ - ٣٠
(٢) المقدمة ، ص ٤٠٧ ، حسين فهميم ، المرجع السابق ، ص ٨٩
(٣) حسين فهميم ، المرجع السابق ، ص ٩٠

مما يلفت النظر في تاريخ الرحلة العربية الاسلامية هو أن طابع المبادرة الشخصية كان العامل الحاسم في غالبية هذه الرحلات . ولم تقم الدولة ، أى دولة ، بتمويل هذه الرحلات سوى في أضيق نطاق وعندما يكون من يقوم بالرحلة مكلفا بسفارة أو مهمة رسمية لحساب الدولة .

أما أوروبا الغربية ورحالتها ، فإن الامر كان مختلفا بالنسبة لهم الى حد بعيد . فقد كان القرن الحادى عشر الميلادى (٥ هـ) ، وبالنسبة للغرب الاوروبى بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة التكوين في تاريخ العصور الوسطى الاوربية ، وتميزت حركة التاريخ الاوروبى منذ ذلك الحين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التى دفعت الناس الى السفر الى مناطق الحدود ، وما وراء البحار ، أملا في تحقيق طموحاتهم (٤) . وأخذت أوروبا توفن أن طاقتها الحضارية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة ، فأخذت تسعى لايجاد منافذ خارجية لها . وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الذى كانت الحملات الصليبية جزءا منه (٥) . وفى ذلك الطور المبكر كانت الرحلة الاوربية ما تزال مدفوعة بأهداف دينية ، وان زاحمتها الدوافع الاقتصادية والعسكرية .

فقد كان الحج الى الاراضى المقدسة ، التى شهدت قصة المسيح ، حركة اجتماعية دينية ذات مضمون عاطفى منذ وقت مبكر . وتخيرنا النصوص التى تركها الرحالة الاوربيون في ذلك الوقت المبكر - قبل عصر الحروب الصليبية - أن المسيحيين القادمين من الغرب الاوروبى الى فلسطين كانوا يحرصون على الاكل في كهف أكل فيه المسيح مع حواريه ، أو يستحمون في مياه نهر الاردن التى تم تعميده فيها (٦) .

ومن ناحية أخرى ، لعبت تجارة «الذخائر المقدسة» (أى الملابس والادوات والاشياء المادية التى ينسب الى الانبياء والقديسين استخدامها ، أو بعض أجزاء من رفاتهم) دورا هاما في اثارة اهتمام الاوربيين بالرحلة الى الارض المقدسة . وقد نسجت قصص وحكايات خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة مما زاد في تأجيج الرغبة في الرحلة الى الشرق (٧) ، مطلع الشمس ومكمن الكنوز والافكار الغامضة ، والمسرح الذى شهد قصة المسيح على الارض .

(٤) المرجع السابق .

(٥) قاسم عبده قاسم ، مائة الحروب الصليبية (عالم المعرفة ، العدد ١٤٩ ، الكويت .

١٩٩٠ م) ، ص ٥٩ - ٦١ .

(٦) قاسم ، المرجع السابق

(٧) قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٣ .

ومن خلال الحروب الصليبية ، والتوغل الأوربي في حوض وبحر المتوسط ، اكتشف الأوروبيون أن حضارتهم مختلفة بالقياس إلى الحضارة العربية الإسلامية والحضارة البيزنطية ، والاهم من هذا أنهم اكتشفوا أن العالم الحقيقي غير العالم الذى صورته لهم العزلة التى فرضها التمزق الاقطاعى من ناحية ، وسيطرة الكنيسة على الفكر والتعليم من ناحية أخرى . وهنا بدأت دوافع الرحلة تتنوع ما بين التجارة ، والمغامرة ، والسفارة ، وطلب العلم ، بيد أن الرحلة الصليبية «لقتال المسلمين والحج إلى فلسطين» احتفظت بقدر كبير من الجاذبية في نفوس الأوروبيين آنذاك .

وبعد استرداد صلاح الدين الأيوبي لمدينة بيت المقدس ، وتحطيم زهرة فرسان الكيان الصليبي في فلسطين ، حاولت أوروبا الانتقام بحملة قادها ثلاثة من أكابر رؤوس أوروبا المتوجة ، آنذاك . ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا ، ولكن الحملة انتهت بحصاد هزيل أبقى الوضع على ما هو عليه . وبعدها أدركت البابوية أن مصر هى محور العمل العربى الإسلامى عسكريا وسياسيا واقتصاديا . ومنذ ذلك الحين أصبحت أرض النيل هدفا دائما لكل الحملات والمغامرات الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى .

هذا الاهتمام العسكرى والسياسى المتصاعد كان يوازيه اهتمام آخر على مستوى التجارة والدبلوماسية والمعرفة . فقد وفدت الرسل من كل أنحاء أوروبا إلى القاهرة ، في الفترة محل الدراسة ، حجاجا إلى فلسطين وزوارا للأماكن المسيحية المقدسة في سيناء ، والفسطاط ، والمطرية وغيرها من بقاع مصر . فمنذ ولى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى عرش مصر سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) صارت القاهرة بمثابة حصن الدفاع الأخير عن الحضارة العربية الإسلامية من ناحية ، كما كانت لها السيادة الفعلية ، أو الادبية ، على كافة أنحاء العالم الإسلامى من ناحية ثانية . وعلى المستوى الاقتصادى كان لغزوات المغول في القرن الثالث عشر تأثيرها في اغلاق طرق التجارة البرية في آسيا ، وأصبحت مصر مركزا لتجارة المرور بين الشرق والغرب .

وبسبب هذا كله جاءها الرحالة الأوروبيون ، سفراء وجواسيس ، تجارا وباحثين ، حجاجا وزوارا . ودونوا في رحلاتهم كثيرا من الأخبار والملاحظات عن البلاد وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم ، ملابسهم وطعامهم ، بلادهم ومبانيهم ومؤسساتهم .. ولم يكن الاسبان ! مسيحيين ويهودا استثناء في ذلك بطبيعة الحال .

وفى دراستنا هذه نقدم نموذجين من الرحالة هما : الاندلسى المسلم ، ابن جبير الذى زار مصر والمنطقة اiban اشتداد الصراع ضد الصليبيين ، وابن سعيد الذى زار مصر والمشرق فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أى وقت احتدام الاحداث التى أدت الى قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام .

أما ابن جبير فهو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى ، الاندلسى ، الشاطبى ، البلبسى . وهو من مواليد بلنسية . وقد تلقى نفس النمط التقليدى من التعليم الذى ألفه أبناء طبقته ، اذ درس علوم القرآن والفقه والحديث ، كما كان أديبا شاعرا . بيد أن ذكره داع فى التراث العربى بسبب رحلته التى دون ، وقائعها ومشاهدته أثناءها فى كتابه المعروف باسم «رحلة ابن جبير» . وهذه «الرحلة» هى خلاصة تجاربه ومشاهدته فى ثلاث رحلات أهمها رحلته التى بدأت فى شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م (٨) . وانتهت فى المحرم ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م (٩) أى بعد أكثر من ثلاث سنوات .

تمثل رحلة ابن جبير نموذجا للرحلة بقصد أداء فريضة الحج ، فهو يذكر فى بداية الكتاب ما نصه «وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركية ، قرنهما الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل ..» . وقد وصل «ابن جبير» مصر بعد رحلة بحرية استمرت ثلاثين يوما . ولم يكن لقاء رجال الجمارك للرحالة الاندلسى المتدين وصحبه لقاء سارا وانما كان لقاء عاديا تسوده الفظاظة والخشونة والقسوة التى تميز رجال الحكومة فى مصر على الدوام (١٠) ، ورغم المرارة التى حملتها كلمات «ابن جبير» فى وصف هذا الموقف ، فانه حاول تبرئة السلطان صلاح الدين الايوبى من مسئولية هذا التصرف وأمثاله .

بعد ذلك وصف رحالتنا الاسكندرية ومناراها ، وتحدث عن مناقبها (١١) ، ثم بدأ حديثه عن «مصر والقاهرة» ، أى الفسطاط والقاهرة اللتين كانتا فى ذلك الحين تشكلان ، سويا ، عاصمة مصر . وقد نزل «ابن جبير» فى الفسطاط بفندق «أبى الثناء» فى زقاق القناديل على مقربة من جامع «عمرو بن العاص» (١٢) . وهنا نجد فى عبارة ابن جبير ، التى تبدو عادية مألوفه ، اشارة هامة عن تطور

(٨) رحلة ابن جبير ، (دار صادر ، بيروت ١٩٦٤) ، ص ٧

(٩) نفسه ، ص ٣٢٠

(١٠) نفسه ، ص ١٢ - ١٤

(١١) نفسه ، ص ١٤ - ١٨

(١٢) نفسه ، ص ١٩

العاصمة المصرية آنذاك ، فقد سكن رحالتنا في الفسطاط ولم يسكن في القاهرة ، كما أنه نزل بمنشأة من المنشآت التي انتشرت في أنحاء عالم البحر المتوسط آنذاك ، ونعني به «الفندق» وفيما يتعلق بالامر الاول ، أى سكن «ابن جبير» ورفاقه الفسطاط ، فان ذلك أمر يمكن تفسيره في ضوء الحقيقة القائلة بأن القاهرة كانت حتى ذلك الحين ما تزال عاصمة سياسية وإدارية على الرغم من أن صلاح الدين الأيوبي بنى القلعة لتكون مقرا للحكم . ومن الطبيعي أن تخلو القاهرة من المنشآت ذات الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية ، إذ كانت الفسطاط ما تزال هي العاصمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ومن مجموع «مصر والقاهرة» ، أى الفسطاط والقاهرة تكونت العاصمة مثلما كان الحال زمن الفاطميين (١٣) .

أما «الفندق» الذى نزل فيه ابن جبير ، فلم يكن فندقا بالمعنى المعروف اليوم ، انما كان نوعا من المنشآت التجارية التى تجمع بين توفير مكان لعرض البضائع التى يجلبها التجار الاجانب معهم ، وتوفير أماكن النوم والاقامة لهؤلاء التجار. وقد اشتق الفندق اسمه من كلمة يونانية هى بندوكيون Pandokeion التى كانت تستخدم للدلالة على مثل هذا النمط من المنشآت التجارية/الاجتماعية وقد كان الجزء الاسفل من «الفندق» يخصص لعرض البضائع على حين كان الطابق العلوى منه يخصص للنوم . وكانت الفنادق المخصصة للتجار الاوربيين تضم كنيسة صغيرة ، وطاحونا ، ومعصرة للنبذ . وقد وجد بالفسطاط والقاهرة عدد من الفنادق التى خصص بعضها لعرض الفاكهة والخضر (١٤) . وقد كان بالقاهرة أيام المقرئى (منتصف القرن التاسع الهجرى/١٥ م) تسعة عشر فندقا (١٥) .

كان الرحالة «ابن جبير» يرى القاهرة بعينى مسلم جياش العاطفة يزور أهم عواصم دار الاسلام ، فى فترة من أهم فترات تاريخ المسلمين وأكثرها حساسية

(١٣) جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٣٠

(١٤) ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الامصار ، ج ٤ ، ص ٤١ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٥٣

لمزيد من المعلومات عن «الفندق» انظر :

جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة (ترجمة د. مصطفى العبادى ، سلسلة مراكز الحضارة ، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٦٨) ، ص ١٦٧ . حيث يتحدث «فنادق» المنسوجات الاوربية (أى أسواقها) ، وكان كل فندق يحتوى على عدد كبير من الحوانيت ، انظر أيضا نفس المرجع ص ١٩٦ - ١٩٨
صباحى لبیب «الفندق» .

(١٥) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٦ - ٩٤ ، جاستون فييت ، القاهرة ، ص ١٩٩

وقد ذكر الدكتور حسين نصار (١٦) ، أن «ابن جبير» كان يهتم بثلاثة أمور في وصفه للمدن التي شاهدها ، وهى : المرافق ، والمشاهد ، والارياض ، والمرافق هى الاسوار والحصون ، والمساجد والمدارس ومصادر اياه والحمامات ، والاسواق ، والبيمارستانات ، والمنازل والشوارع ، والابواب ، أما المشاهد فهى المقابر ، والمولد ، وآثار الانبياء والعلماء والأولياء ، والبزارات الاسلامية، والمعابد وكنائس غير المسلمين ، بينما كانت الارياض هى الضواحي المجاورة للمدينة .

وقد بدأ «ابن جبير» في وصفه لمدينة القاهرة ، بالحديث عما أسماه الدكتور حسين نصر «المشاهد» . اذ أنه قدم لنا وصفا عاطفيا لمشهد الحسين ومن الواضح أنه كان مبهورا بفخامة المشهد الذى جمع بين الذهب والفضة والديباج .. والرخام المجزع الغريب الصنعة ، والبديع الترصيع ، ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصف وصفه الواصفون .. « (١٧) . وقد مس شفاف قلبه ما شاهده من تمسح الناس بقبر رأس الحسين .. وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين ما يذيب الاكباد ويصدع الجماد .. « (١٨) .

ثم وصف «ابن جبير» القرافة التى قال أنها احدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الانبياء ، وأهل البيت ، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والانبياء الغربية . وعلى كل منها بناء بديع .. قد وكل بها قومه يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر .. « (١٩) .

وما ذكره ابن جبير عن المزارات الدينية التى كان أهل القاهرة آنذاك يتبركون بها وعن القرافة يتفق مع ما نعرفه عن عادات وتقاليد أهل القاهرة فى الفترة التى يهتم بها البحث . اذ كان سكان العاصمة المصرية - وما يزالون - يتبركون بعدد من «المشاهد» ، أو قبور الاولياء والصالحين وآل بيت . وفى تلك الفترة التاريخية خصصوا كل مشهد يوما معيناً من أيام الاسبوع ، اذ أن ابن الحاج الذى زار القاهرة ، ومكث بها فترة ، فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، يحدثنا عن نساء القاهرة آنذاك .. جعلن لكل مشهد يوما معلوما فى الجمعة

(١٦) حسين فهمي ، أدب الرحلات ، (عالم المعرفة ، ١٢٨ ، الكويت ، ١٩٨٩ م) ، ص ١٨ - ١٩
حسين نصار ، « رحلة ابن جبير » ، مجلة تراث الانسانية ، المجلد الاول .

(١٧) رحلة ابن جبير ، ص ١٩ - ٢٠

(١٨) نفسه ، ص ٢٠

(١٩) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠ - ٢٤

فجعلن يوم الاثنين لسيد الحسين ، والثلاثاء والسبت للسيدة نفيسة والخميس والجمعة للقرافة لزيارة الشافعى وغيره ولأمواتهن » (٢٠) .

وفي حديث ابن جبير اشارة واضحة الى ولع أهل القاهرة آنذاك بالخروج والنزهة وكانت «القرافة» أى منطقة المقابر الخاصة بالقاهرة - من أهم منتزهات أهل القاهرة في ذلك الزمان . وقد استرعت انتباه كل الرحالة الذين زاروا القاهرة لعدة أسباب ، أولها : ما ارتبط بها من قبور الاولياء والصحابه والصالحين الذين أشار اليهم ابن جبير . وثانيها : بعض المعجزات التى نسبت الى الموتى المدفونين في هذه القرافة (٢١) ، وثالثها : أن القرافة لم تكن مجرد جبانة يلفها صوت الموتى كما هو الحال في كل الجبانات ، وإنما كانت مكانا للنشاط اليومى لسكان القاهرة ، فقد تحدث ابن بطوطة في رحلته الشهيرة عن الزوايا والمدارس في القرافة ، وعن البيوت التى بنيت هناك لاقامة أهل الموتى عند الزيارة التى كانت تتم كل ليلة جمعة ، وتعجب من أن الناس كانوا يبيتون في القرافة بنسائهم وأولادهم ، « ويطوفون على الاسواق بصنوف المأكّل » (٢٢) .

وقد أكد «ابن الحاج» ما ذكره ابن بطوطة ، على الرغم من انتقاداته المبررة لتصرفات المصريين في هذا الشأن ، فقد ذكر أن النساء كانت تخرج بصحبة أزواجهن الى القرافة « .. خوفا من التشويشات التى يتوقعها منهن من الامتناع» كما قال أن الغيرة قد تغلب بعض الأزواج « .. بسبب مغازلة الاجانب .. » ، فيقع الضرب والخصام ، وقد يتطور الامر الى المثلث أمام الحاكم والوالى والحبس وغير ذلك (٢٣) ، وقد أشار ابن الحاج الى عادة أهل القاهرة بناء الدور في القرافة وزيارتهم للميت واقامتهم بجواره « .. الشهر والشهرين والثلاثة ، بقدرة عزة الميت لديهم .. » كما أوضح لنا أن الحياة في القرافة كانت تسير على وتيرتها العادية تماما ، اذ كان القاهريون يوقدون الشموع في المقابر ويوقدون الاحطاب لطعامهم (٢٤) .

(٢٠) ابن الحاج ، المدخل الى تنمية الاعمال بتحسين النيات والتنبه على بعض البدع والعوائد (المطبعة المصرية بالازهر ، ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م) ، ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٢١) في القرن السادس عشر كتب باومجارتن ما نصه « في ظاهر مدينة القاهرة شاهدنا مسجدا على ضفاف النيل ، وقيل لنا انه عند اقامة الصلاة فيه ، يخرج الموتى من مقابرهم ويقفون دون حركة طيلة الصلاة ، ثم يختفون بعد ذلك » ويبدو أن هذا الكلام كان شائعا في القاهرة بالقدر الذى جعل آخرين يكتبون عنه بعد سنوات . انظر :

جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ٢١٣ - ٢١٤

(٢٢) رحلة ابن بطوطة ، (تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور على المنتصر الكتانى ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١) ، ج ١ ، ص ٥٥ - ٥٦

(٢٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٢٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢

لكن أكثر ما أثار هذا الرجل المتدين « .. ما يفعله بعض النساء في زيارة القبور في ركوبهن على الدواب في الذهاب والاياب والرجوع ، وفي مس المكاري لهن وتحضينه للمرأة في اركابها وانزالها ، وحين مضيتها يجعل يده على فخذيها وتجعل يدها على كتفه ، مع أن يدها ومعصمها مكشوفان .. » (٢٥) أما القرافة نفسها ، فقد رأى « ابن الحاج » أن الامر اشتمل على مفساد عديدة منها « .. مشيهن بالليل مع الرجال في زيارة القبور ، والاختلاط بالرجال والضحك والغناء .. » كما انتقد « .. ما أحدثوه من الوعاظ على المنابر والكراسى والمحدثين من القصاص في الليالي المقمرة وغيرها ، واجتماع الرجال والنساء جميعا مختلطين .. كذلك القراء الذين يقرأون القرآن بالترجيع والزيادة ، والنقصان ، ورفع الاصوات الخارجة عن حد السميت والوقار ، والتمطيط والمد .. على ترتيب هنوك الغناء .. » (٢٦) .

وعلى الرغم من كلمات «ابن الحاج» الحانقة الناقدة ، فانه رسم لنا - من حيث لا يدري أو يقصد - صورة حية للدور الاجتماعى للقرافة في حياة القاهريين آنذاك . وقد أكد هذه الصورة عدد كبير من زوار القاهرة ، ومن الكتاب الذين كتبوا عنها في ذلك الحين ، بيلوتى الكريتى - الذى زار القاهرة سنة ١٤٢٠ م وقال أن جميع فقراء القاهرة كانوا يذهبون الى القرافة لياكلوا وياخذوا الصدقات ، كما ذكر أن مساحة القرافة كانت مثل مساحة البندقية (٢٧)

واذا كنا قد استرسلنا الى حد ما في الحديث عن المشاهد والقرافة التى ذكرها « ابن جبير » ، فان السبب في ذلك راجع الى تلك الصورة الباردة التى رسمتها كلمات هذا الرحالة لمؤسسات دينية / اجتماعية كانت من أهم محاور الحياة اليومية في القاهرة . وهى تجسد نوعا من الموروث الثقافى للمصريين عامة ، من حيث اهتمامهم بالموتى ، واحتفالهم بالمقابر واهتمامهم برونقها ونظافتها على نحو يفوق اهتمامهم ببيوتهم وشوارعهم . كما أن « ابن جبير » لم يدرك ثنائية الحزن والمرح في طبيعة المصريين ، وهو الامر الذى أثار دهشة بعض الزوار ، واستفز مشاعر الحنق والغضب لدى البعض الآخر . وكانت القرافة مسرحا تتجلى عليه هذه الطبيعة المزدوجة بشكل واضح .

ويبدو أن اهتمام «ابن جبير» بالجوانب الدينية قد غلب ما عداه عندما بدأ في وصف القاهرة والفسطاط . اذ أنه ذكر أن السلطان صلاح الدين الايوبى

(٢٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٧

(٢٦) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٦٨

(٢٧) جاستون فييت ، القاهرة ، ص ٢١٥ - ٢١٦

خصص لنفقات المدارس «بمصر والقاهرة» ما قيمته ألفى دينار مصرية في الشهر (٢٨) وروى أنه قد خصص لمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط نحو ثلاثين دينارا «.. في كل يوم تتفرق في مصالحه ومرتببات قومه وسدنته ، وأئمته ، القراء فيه ..» ، كما حدثنا عن أربعة جوامع بالقاهرة تقام بها خطبة الجمعة ، وحرص على أن يوضح أن الخطباء سنيون في مذهبهم وفي ملابسهم (٢٩) .

ومن المهم هنا أن نشير الى أن رحلة ابن جبير وزيارته لمصر تمت في وقت كانت الاحداث فيه تمر بمرحلة حاسمة ، فمنذ استبداد صلاح الدين بالحكم في مصر بدأ العمل على اعادة المذهب السني حتى في حياة الخليفة العاضد آخر الفاطميين ، ففي سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) عزل قضاة الشيعة ، ثم جمع العلماء والفقهاء واستفتاهم في قطع الخطبة للعاضد الفاطمي فوافقوه ، وفي أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر ١١٧١ م) صعد الشيخ نجم الدين الخبوشاني منبر جامع عمرو بن العاص قبل الخطيب ودعا للمستضيء بالله العباسي ، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين بقطع خطبة العاضد واقامة خطبة المستضيء في كافة جوامع مصر والقاهرة (٣٠) ، وهذا هو الامر الذي أراد الرحالة ابن جبير أن يوضحه في رحلته عندما تذكر أن الخطيب يأخذ في الجوامع مأخذا سنيا ، ويرتدى شعار العباسيين . كذلك فإن ما ذكره عن الاموال المخصصة للانفاق على المدارس ، كان ضمن سياسة عامة ترمى الى اعادة نشر المذهب السني في الديار المصرية ، وكانت المدارس وسيلة ناجحة للغاية في هذا السبيل (٣١) .

فاذا مضينا مع رحلة ابن جبير حدثنا عن قلعة القاهرة التي قال عنها ما نصه : «يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ..» (٣٢) ، كما ذكر أن الاسرى كانوا يقومون بكافة الاعمال اللازمة لبناء هذه القلعة . ومن الواضح أن القلعة لم تكن قد بنيت بالفعل عندما شاهدها ابن جبير ، وهو ما يؤكد ما ذهبنا اليه من قبل من أن القاهرة كانت ما تزال عاصمة ادارية وسياسية . ويغلب على الظن أن صلاح الدين قد نسي أمر القلعة لكثرة مهامه في بلاد الشام ، إذ أن القلعة لم يتم بناؤها

(٢٨) رحلة ابن جبير ، ص ٢٤

(٢٩) نفسه ، ص ٢٤ - ٢٥

(٣٠) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ . (القاهرة . ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م) ، ج ١١ ، ص ١٤٨

(٣١) عبد الغنى محمود عبد العاطي ، التعليم في مصر زمن الايوبين والمماليك (دار المعارف ،

١٩٨٤) ، ص ٧٠ - ٧٩ ، جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٣١

(٣٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥

وتصبح مقرا للحكم الا على يد ابن أخيه الملك الكامل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) (٣٣) .

ويحدثنا ابن جبير أيضا عن البيمارستان ، أى المستشفى الذى أنشأه صلاح الدين الايوبي فى أحد القصور الفاطمية ، وعين عليه مشرفا من أهل المعرفة ، كما زوده بخزائن العقاقير والاشربة ، وكانت الخدمة فيه جيدة على ما يبدو ، كما خصص جزء من هذا المستشفى للمرضى من النساء ، وجزءا آخر للمجانين عبارة عن مقاصير عليها شبابيك الحديد (٣٤) .

وقد ذكر لنا الرحالة الاندلسى ابن جبير تحصينات صلاح الدين والجسر الذى بناه بازاء النيل تحسبا لاي هجوم صليبي على الاسكندرية وقت الفيضان بحيث يمكن استخدام هذا الجسر لارسال النجدة العسكرية دون عائق (٣٥) .

وقد انبه ابن جبير بالاهرام التى قال عنها « .. لو رام أهل الارض نقض بنائها لاعجزهم ذلك .. » وقد أشار الى الاساطير التى نسجت حول الاهرام ، فقال ان البعض جعلوها قبورا لعاد وبنيه ، وبعضهم زعم غير ذلك « .. وبالجمله فلا يعلم شأنها الا الله عز وجل .. » كما وصف ابا الهول بأنه صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر .. « تعرف بأبى الاهوال (٣٦) .

حدثنا ابن جبير بعد ذلك عن مدينة مصر ، ويقصد بها الفسطاط والعسكر والقطائع التى صارت آنذاك العاصمة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على الرغم من أنه ذكر لنا آثار الحريق الذى كان قد أحرق الفسطاط إبان الصراع بين شاور وضرغام سنة ٥٦٤ هـ . وقد ذكر ابن جبير أن الفسطاط كانت قد تجددت عند زيارته لها « .. والبنيان بها متصل .. » (٣٧) .

هكذا كانت رؤية «ابن جبير» للقاهرة عاصمة العالم الاسلامى فى لحظة تمثل نقطة فارقة فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية وهى تواجه الهجوم الصليبي بالجهاد والمقاومة الايجابية التى أسفرت عن هزيمة الصليبيين فى حطين ، واسترداد بيت المقدس ، وتقلص اللون الصليبي على خريطة المنطقة العربية الى

(٣٣) بول كازانوف ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، (ترجمة وتقديم أحمد دراج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م) ، ص ٢٠

(٣٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٦

(٣٥) الرحلة ، ص ٢٧

(٣٦) نفسه ، ص ٢٨ - ٢٩

(٣٧) نفسه ، ص ٢٩ . المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٣

أقل ما يمكن . وعلى الرغم من برود الوصف الذى امدتنا به رحلة ابن جبير للحياة فى العاصمة المصرية آنذاك ، فإن اشاراته كانت تثير الكثير من الاهتمام بتطور القاهرة ، ومنشأتها ذات الوظيفة الدينية / الاجتماعية وفى تصورنا أن اهتمام ابن جبير - الذى كان فى رحلة حج الى الحجاز - بالجوانب الدينية ، وحرصه على ابراز مشاعره الدينية الجياشة ، هو الذى حال بينه وبين الاهتمام بالحياة اليومية فى « مصر والقاهرة » .

واذا كان ابن جبير قد زار القاهرة فى بداية العصر الايوبى ، فإن لدينا رحالة آخر من الاندلس زار العاصمة المصرية فى أواخر ذلك العصر . هذا الرجل هو « على بن موسى بن محمد بن سعيد » الذى زار مصر بصحبة أبيه سنة ٦٣٩ هـ ، والذى كان آخر حلقة فى سلسلة من المؤلفين من أهل الاندلس ألفوا كتاب « المغرب فى حلى المغرب » على مدى مائة وخمس عشرة سنة (٣٨) . وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الذى اشترك فى تأليفه ستة من الرجال ، على مدى هذه السنوات الطوال ، فإننا سنقصر اهتمامنا على القسم الذى سماه « النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة » (٣٩) .

وقد زار مؤلفنا « على بن موسى » (الذى سنذكره بلقب « ابن سعيد » فى هذه الدراسة) مصر سنة ٦٣٩ هـ ومكث بها حتى سنة ٦٤٤ هـ حين رحل الى حلب ، وبعد رحيله بين دمشق وبغداد وأرمينية يعود الى تونس سنة ٦٥٢ هـ ، ليعاود الرحيل الى المشرق سنة ٦٦٦ هـ ، ثم يؤوب الى تونس ويبقى بها حتى وفاته سنة ٦٨٥ هـ (٤٠) ، وقد دون ابن سعيد كتابه وهو فى ضيافة المؤرخ المعروف « ابن العديم » بحلب فيما بين سنتى ٦٤٥ ، ٦٤٧ هـ .

والمشكلة الاساسية أن الكتاب موزع فى تأليفه بين موسى وابنه على ومن ثم فإننا نظن أن المشاهدات الحية دونها قلم « الابن » لأن الاب توفى فى السنة التالية لوصوله الى مصر (٤١) .

يبدأ « ابن سعيد » حديثه باقتباس عن البيهقى فى الحديث عن القاهرة ، ثم يحدثنا عن قصر ابن طولون بعد أن اندثر ، فيقول : « .. وقصر ابن طولون فى مدينة القطائع الان هو ميدان تحت قلعة الجبل ، أخبرنى بذلك من سألته من

(٣٨) انظر المقدمة التى كتبها الدكتور شوقى ضيف لكتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، (الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٧٨) ، ج ١ ، ص ١-٩

(٣٩) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب) ، تحقيق دكتور حسين نصار . (دار الكتب ١٩٧٠ م) .

(٤٠) المغرب ، ج ١ ، ص ٧
(٤١) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ص ١٤

العارفين بهذا الشأن ، ولم يبق الآن أثر لمدينة القطائع الطولونية غير جامع ابن طولون ، وهو خارج القاهرة ، وحوله المباني من غير سور يدور عليها .. » (٤٢) .

وهنا نجد إشارة واضحة من «علي بن سعيد» بأنه دون مشاهداته في القاهرة ، اذ يقول « وقد جمعت ملتقطات من كتاب البيهقي وكتاب القرطبي وغيرهما من الكتب ، واضفتها الى ما عاينته وعلمته من أمر مدينة القاهرة ، لاني سكنت فيها كثيرا داخلا وخارجا .. » .

وعلى الرغم من أن القاهرة قد شهدت في تلك الفترة احداثا جساما تحت حكم السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧/٦٤٧ هـ - ١٢٤٠/١٢٤٩ م) ، وانتهت باستيلاء قوات الحملة الصليبية السابعة على دمياط ، ثم استئثار المماليك بحكم البلاد بعد هزيمة الصليبيين وأسر لويس التاسع ، ومصرع توران شاه آخر الايوبيين في مصر على أيدي فرسان المماليك (٤٣) ، نقول أنه على الرغم من ذلك فإن « ابن سعيد » لم يهتم بالامور السياسية والعسكرية الجارية ، واكتفى بأن يعبر عن مشاعره غير الودية تجاه القاهرة منذ السطور الاولى .

يقول «ابن سعيد» عن القاهرة «هذه المدينة اسمها أعظم منها» (٤٤) ، ثم يصف «بين القصرين» فيقول أنها ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ، وهو يتمنى لو أن القاهرة كلها كانت كذلك ، بيد أنه يشكو من ضيق شوارع القاهرة ، وكثرة الدكاكين على جانبي الطريق ، وكيف كانت الدواب تزاحم الناس بحيث « .. تضيق منه الصدور ، وتسخن منه العيون .. » ، « ، ، » ، وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب والازبال ، والمباني عليها من قصب وطين ، مرتفعة ، قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ، ، » (٥٤) .

وعلى الرغم من كلمات «ابن سعيد» الحانقة ، فإنه يرسم لنا صورة حية للقاهرة في أواخر العصر الايوبي ، وقد أمست موطننا ومستقرا ومقاما لابناء الطبقة الشعبية من الحرفيين ، وأصحاب المهن ، والتجار ، ولم تعد تلك المدينة الادارية / السياسية التي كانت عندما بدأ حكم الايوبيين . ويبدو أن الرحالة الذي تربى ونشأ في بيت من بيوت الامراء ، لم يستطع أن يتسامح مع زحام

(٤٢) نفسه ، ص ٢١ - ٢٢

(٤٣) المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، (تحقيق د. محمد مصطفى زيادة) ، ج ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، انظر أيضا : محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة (القاهرة ، ١٩٦١) ، ص ١٤٥ - ٢٠١

(٤٤) النجوم الزاهرة ، ص ٢٢

(٤٥) النجوم الزاهرة ، ص ٢٤

القاهرة وصخبها الذى ميزها آنذاك ، فقد كانت شوارع القاهرة ضيقة غير مرصوفة ، تربط بينها أحيانا ساحات واسعة غير منتظمة الشكل تتحول اجزاء منها الى برك زمن الفيضان ، ثم تصبح حقولا وحدائق بعد أن ينحسر ماء الفيضان . وفى الشوارع جمهور من جنسيات مختلفة ويتزاحم ويختصم أفرادها حق المرور مع الدواب ..

وقد شارك كثيرون من الرحالة الذين زاروا القاهرة « ابن سعيد » رأيه فى زحام القاهرة ، وإن لم تحمل كلماتهم مشاعر الحنق والغيط البادىء فى كلماته (٤٦) ويبدو عداء ابن سعيد للقاهرة فى هذه العبارة « .. ومن عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الاعظم ، ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل .. (٤٧) فالمصادر التاريخية تؤكد لنا أن عددا كبيرا من السقائين كانوا ينقلون مياه نهر النيل الى سكان القاهرة فى قرب المياه التى كانوا يحملونها على ظهور جمالهم وحميرهم أو على أكتافهم . ولفت نظر الرحالة الذين زاروا القاهرة آنذاك كثرة عدد السقائين (٤٨) . والجدير بالذكر أن الماء كان يباع بالقرب ، وفى بعض الاحيان كان السقاؤون يأخذون أجورهم مقدما ، ثم يرسلون صبيانهم لتفريغ قرب المياه فى الازيار داخل المنازل . كذلك كان السقاؤون يقدمون خدماتهم للطواحين والمعاصر ومعاجن الطين التى كانت تحتاج الى كميات كبيرة من المياه (٤٩) .

وقد عرف الشارع المصرى آنذاك طائفة من السقائين عرفوا باسم «سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء» . ويبدو أن أولئك السقائين كانوا أصحاب الحوانيت التى توضع بها الازيار والكيزان مقابل مبلغ متعارف عليه . وقد كان المحتسب مسئولا عن مراقبة نظافة هذه الازيار والكيزان وعدم غش مياه النيل بمياه الابار (٥٠) ، وكان « أرباب الروايا والقرب والردلاء» من طائفة السقائين يبيعون المياه فى الشوارع والاسواق (٥١) ، فضلا عن هذا

(٤٦) جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ١١٧ - ١٢٦ . وقد كانت شوارع المدينة ضيقة جدا عن قصد بسبب حرارة الجو ، فقد تراوح عرض الشوارع بين خمسة اقدم وخمسة عشر قدما ، بل أن منها ما كان يتراوح عرضه بين قدمين وقدمين ونصف فقط . وكثيرا ما كانت تماشى شرفات المنازل المتقابلة فى هذه الشوارع . والعديد من شوارع القاهرة كانت مغطاة أيضا من أعلى لا سيما فى مناطق الاسواق . انظر : جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٧٦ (٤٧) النجوم الزاهرة ، ص ٢٥

(٤٨) رحلة البلوى الغربى ، ص ٥٥

(٤٩) قاسم عین قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٨٣ ، ط. ثانية) ، ص ١٣٠ - ١٣١

(٥٠) ابن الاخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة (نشرة لىفى كميردج . ١٩٣٧ م) ص ٣٤٨ (٥١) قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٣١

كله ، كانت بالقاهرة عدة أسبلة توزعت على شوارعها لتسهيل حصول المارة على المياه للشرب ، بل كانت هناك أيضا أحواض لشرب الحيوانات في مواضع مختلفة في مدينة القاهرة (٥٢) . وكانت تلك الأسبلة توفر مياه الشرب والوضوء المجانية لسكان القاهرة وزائريها ، وقد كان عدد أسبلة القاهرة كبيرا بالفعل .

ومن هنا فإن ما ذكره « ابن سعيد » عن عطش الانسان في القاهرة لبعدها عن النيل أمر جانب الحقيقة الى حد كبير . ولكن رحالتنا المرفه لم يغفل ذكر أماكن النزهة والخروج في القاهرة ، فحدثنا عن « أرض الطبالة » التي قال عنها .. « وأحسن موضع في ظاهرها للفرجة أرض الطبالة ، لا سيما أيام القرط ، والكتان .. » (٥٣) ، وقد وصفها المقرئ في خطه أيضا بأنها من أحسن أماكن النزهة في القاهرة ، وفي أيام الربيع كانت رؤيتها شيئا عجيبا . والسبب في تسميتها بهذا الاسم أنه لما نجح الأمير أبو الحارث أرسلان البساسيري في الاستيلاء على بغداد ، وأقام الدولة الفاطمية هناك سنة ٤٥٠ هجرية ، وأرسل عمارة الخليفة القائم العباسي وثيابه الى الخليفة المستنصر الفاطمي ، أمر الأخير بإقامة الزينة والافراح في القاهرة . وقفت امرأة تدعى « نسب » ، كانت طبالة المستنصر ، وأنشدت بيتين من الشعر أعجبا المستنصر فوهبها تلك المنطقة (٥٤) ، وقد ظلت هذه المنطقة متنزها لاهل القاهرة حتى خرجت سنة ٦٩٦ هـ بسبب الوباء الذي ألم بمصر آنذاك « .. حتى لم يبق فيها انسان يلوح .. وبقيت خرابا حتى سنة ٧١١ هـ وبدأ الناس في سكناها حتى صار بها عدة حارات ، ثم خربت ضمن ما خرب من أحياء القاهرة وضواحيها سنة ٨٠٦ هـ حتى صارت كيمانا ، وبقي منها جزء في عصر المقرئ عرف بالجينية اشتهرت بببع » .. الحشيشة التي يبتلعها أراذل الناس (٥٥) .

كذلك افتتن « علي بن موسى بن سعيد » ببركة الفيل في ضواحي القاهرة ، « لانها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب .. » (٥٦) ، ورحالتنا يشير هنا الى حقيقة أن متنزهات أهل القاهرة في ذلك الزمان كانت كثيرة ، لاسيما في ضواحي المدينة ، والجزر الموجودة في

(٥٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، (دار النهضة العربية ، ط. ٩١-٩٠) ، ص ٩١-٩٠ .

أولى ، (١٩٦٢) ، ص ٩٠-٩١ .

(٥٣) النجوم الزاهرة ، ص ٢٥ .

(٥٤) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(٥٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٥٦) النجوم الزاهرة ، ص ٢٦ .

النيل التى كانت مراحا للقاهريين للتفريج عن أنفسهم والاستمتاع بالحدائق والمتنزهات والبرك .

انتقل « ابن سعيد » بعد ذلك الى الحديث عن الفسطاط ، ووضعها بأنها أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة « .. فالمرابك التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتلفق ذلك فى ساحل القاهرة لانه بعيد عن المدينة .. » (٥٧) ويشير ابن سعيد هنا الى حقيقة هامة مؤداها أن ميناء الفسطاط النهري ، وظل هو ميناء العاصمة المصرية حتى بدايات القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، وفى سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م بدأ ظهور ميناء «بولاق» ليكون ميناء القاهرة بدلا من الفسطاط ، ولكنه لم يكتسب أهمية تذكر فى الحياة الاقتصادية قبل نهاية القرن . ومع مطلع القرن التاسع الهجرى كان ميناء الفسطاط قد تلاشى ، كما تدهورت الفسطاط فى نهاية القرن التاسع الهجرى (٥٨) .

ثم انتقل الرحالة الاندلسى الى وصف القاهرة بكلمات مديح معتدلة ، ولكنه وهو سليل بيت الامارة ، أرجع ذلك لكونها مسكن أصحاب السلطة ، اذ يقول : « والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما ، وأضخم خانات ، وأعظم دثارا لسكنى الامراء فيها ، لانها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها ، فأمرور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر .. » (٥٩) ، ثم أشار الى أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب كان يبنى فى ذلك الوقت قلعة بجزيرة الروضة بحيث ازدهرت الفسطاط نتيجة لذلك وانتقل اليها كثير من الاجناد ، وتم بناء قيسارية ضخمة « .. تنقل اليها من القاهرة سوق الاجناد ، التى يباع فيها العراء والجوخ وما أشبه ذلك .. » (٦٠) وهو هنا يشير الى انتقال مقر الحكم بشكل مؤقت الى الحصن الذى أقامه الصالح أيوب سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وأحاطه بسور به ستون برجاً للحراسة ، وقد استخدم عدد كبير من أسرى الصليبيين فى بناء البرج على نحو ما فعل جده صلاح الدين الايوبى عندما أمر ببناء القلعة (٦١) .

وهذا الخبر يشير الى أمر كان له تأثيره الخطير على مصير الحكم الايوبى فى مصر من ناحية ، وقيام دولة سلاطين المماليك البحرية من ناحية أخرى . فالسلطان الصالح نجم الدين أيوب يعد هو المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك

(٥٧) نفسه ، ص ٢٧

(٥٨) جومار ، وصف مدينة القاهرة . ص ٣٨ (من تقديم د. أيمن فؤاد سيد)

(٥٩) النجوم الزاهرة ، ص ٢٧

(٦٠) نفسه ، ص ٢٧

(٦١) جومار ، وصف مدينة القاهرة . ص ٣١

على النحو الذى أدى الى استيلائهم على الحكم ، اذ أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والاكراذ علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ومن ثم اشترى عددا أكبر من الممالك الذين رباهم ودرّبهم ليكونوا العمود الفقرى لجيشه ، وكان هؤلاء الممالك من جنسيات مختلفة ، أتراك ، ومغول ، وصقالية ، وألمان ، وأسبان ، وجراكسة ، ويونان .. وغيرهم . الا أن غالبيتهم فى دولة الممالك البحرية من ناحية أخرى . فالسلطان الصالح نجم الدين أيوب يعد هو المسئول عن ازدياد نفوذ الممالك على النحو الذى أدى الى استيلائهم على الحكم ، اذ أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والاكراذ علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ومن ثم اشترى عددا أكبر من الممالك الذين رباهم ودرّبهم ليكونوا العمود الفقرى لجيشه ، وكان هؤلاء الممالك من جنسيات مختلفة ، أتراك ، ومغول ، وصقالية ، وألمان ، وأسبان ، وجراكسة ، ويونان .. وغيرهم . الا أن غالبيتهم فى دولة الممالك الاولى (البحرية) كانوا من بلاد القفقاز والقوقاز ، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية من الجراكسة (٦٣) .

وقد أسكن الصالح نجم الدين أيوب ممالكه فى قلعتيه الجديدة بالروضة ، ولهذا عرفوا باسم « البحرية » نسبة الى « بحر النيل » وهو الاسم الذى اعتاد أهل مصر أن يطلقوه على نهرهم العظيم (٦٤) .

تحدث « ابن سعيد » بعد ذلك عن العملة المتداولة فى القاهرة والفسطاط كما ذكر أن الاصابة برمد العين منتشرة بين سكان القاهرة . كذلك حدثنا ، بسرعة ، عن أحوال أهل الذمة من اليهود والنصارى ، فقال ان أكثر ما يتعيش به اليهود والنصارى فى كتابة الخراج والطب « .. والنصارى بها ممتازون بالزناز فى أوساطهم واليهود بعلامة صفراء فى عمائمهم ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة » (٦٥) .

وهنا نجد أنفسنا مضطرين للوقوف أمام ملاحظات « ابن سعيد » السريعة التى تدل على أنه دون ملاحظات شديدة السطحية ، فالثابت من المصادر التاريخية ووثائق الجنيّزا أن اليهود المصريين قد عملوا فى عدد من المهن والحرف قساربت

(٦٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٢٢٩ . قاسم . دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ص ١١

(٦٤) المقرئى ، السلوك . ج ١ ص ٢٢٩ . قاسم . دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ص ١١

(٦٥) يشك الأستاذ الدكتور مصطفى زيادة فى هذه النسبة ، انظر :

زيادة . « بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة الممالك » ، حوليات كلية الاداب / جامعة

القاهرة ، مجلد ٤ / سنة ١٩٦٦ م . وقد أيدى الأستاذ الدكتور مختار العبادى ، انظر : قيام دولة

الممالك الاولى فى مصر والشام ، (النهضة العربية ١٩٦٩) . ص ٩٦ - ١٠٠

(٦٥) النجوم الزاهرة ، ص ٢٨

المائتين وخمسين حرفة يدوية ، فضلا عن ممارستهم لحوالى مائة وسبعين نمطا من النشاط فى مجالات الاقتصاد والادارة والتعليم والطب . وقد عمل اليهود فى كل المهن تقريبا ، بدءا بالوزارة وانتهاء بأصغر المهن التى عرفها المجتمع المصرى آنذاك (٦٦) ، واذا كان هذا هو حال اليهود المصريين ، فمن المنطقى أن المسيحيين قد عملوا فى كافة الوظائف بالإضافة الى الزراعة التى لم يكن اليهود يمارسونها وتشير الوثائق والمصادر التاريخية الى أن المسيحيين المصريين قد مارسوا كل المهن والحرف التى مارسها المسلمون (٦٧) .

تحدث «ابن سعيد» بعد ذلك عن بعض الاطعمة التى قال ان أهل القاهرة يأكلونها فقال « (٦٨) .. ومأكل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناء والبطارخ » ويبدو أنه تحدث عن الاسماك الملحة مثل الملوحة والفسيح ، وهنا يبدو أن الرجل قد سجل ما رآه غريبا ، لانه من الثابت أن قائمة طعام القاهريين كانت تضم أصنافا كثيرة ذكرتها كتب الحسبة والمصادر التاريخية الاخرى ، فقد تحدثت هذه الكتب عن عدد كبير من حرف الغذاء التى عرفتها القاهرة آنذاك (٦٩) ، كما أن العدد الكبير من المطاعم التى قدرها الرحالة بالآلاف ، والباعة الجائلين بالطعام فى الاسواق كانوا يقدمون قائمة متنوعة وغنية من الاطعمة للقاهريين (٧٠) . ومن المهم هنا أن نشير الى أن بعض المصادر أوردت لنا قائمة تحوى حوالى ثلاثة وخمسين نوعا مشهورا من الحلوى التى أحبها القاهريون وكانت تباع فى شوارع المدينة وأسواقها (٧١) ، وهو الامر الذى يتأكد من المصادر التاريخية الاخرى على أية حال .

تحدث ابن سعيد ، بسرعة أيضا ، عن مطابخ السكر ، والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصوري ، وقال أنها « .. مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة .. » ، كما ذكر شيئا عن صناعة الجلود والثيراب (٧٢) ، وإشارة ابن سعيد لمطابخ السكر فى الفسطاط تبدو على قدر كبير من الاهمية ، اذ يبدو أن غالبية هذه المصانع الصغيرة كانت مركزة فى الفسطاط حتى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) على أقل تقدير ، فقد أحصى لنا ابن دقماق (توفى ٨٠٥ هـ) ثمانية وخمسين

(٦٦) قاسم عبده قاسم ، اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، (دار فكر ١٩٨٧) . ص ٥٩ - ٦٠

(٦٧) قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٧٥ - ٧٦

(٦٨) النجوم الزاهرة ، ص ٢٨

(٦٩) ابن الاخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة . ص ٤٧ - ٤٨ ، ص ١٥٨ - ١٦٠

(٧٠) عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٨٧ . قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ،

ص ١١٨ - ١١٩

(٧١) ابن الاخوة ، المصدر السابق ، ص ١٨١ - ١٨٢

(٧٢) النجوم الزاهرة ، ص ٢٩

مطبخا للسكر فى الفسطاط وحدها . وكانت صناعة السكر من الصناعات الغذائية الهامة لارتباطها بحياة الرفاهية التى عاشها الحكام من جهة ، وبعادات وتقاليد المصريين من جهة أخرى . وكانت بعض مطابخ السكر مملوكة لأفراد من عامة المصريين ، وبعضهم من اليهود . وفى بعض الأحيان كان أصحاب هذه المصانع الصغيرة يديرونها بأنفسهم على حين كان البعض الآخر يؤجرونها . وينبغى أن نشير الى أن الفسطاط قد اشتهرت بكونها أحد مراكز صناعة السكر الهامة فى مصر آنذاك (٧٣) .

ويبدو أن «ابن سعيد» قد لمس فى القاهرة شيئا لم يألفه فى بلاده ، فقد قال ما نصه « وهى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف على طلب زكاة ولا تزسيما وعذابا عليها ، ولا يطلب برفيق له اذا مات فيقال له : ترك عندك مالا ، فربما سجن فى شأنه أو ضرب وعصر . والفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرتة ، ووجود السماعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما ذهب اليه ، له نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق ، أو تجريد ، أو سكر من حشيشة ، أو صحبة المردان ، وما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب » (٧٤) .

فى هذا النص رسم «ابن سعيد» صورة حية لحياة الفقراء من عامة أهل القاهرة آنذاك ، وقد لاحظ زوار القاهرة فى ذلك العصر أن هناك عددا كبيرا من الفقراء يعيشون فى القاهرة ، وقد تراوحت مسمياتهم فى المصادر التاريخية بين «العوام» الذى كان لفظا عاما ، أو «الزعر» ، و «الحرافيش» ، و «البلاصية» و «الشلاق» ، و «المشاعلية» (٧٥) ، ومن الواضح أنهم عاشوا فى القاهرة فى حرية تامة وعملوا فى حرف الخدمات والحرف الدنيا التى كان مجتمع القاهرة بحاجة اليها . وفى الفترة التى زار فيها «ابن سعيد» القاهرة ، كانت أمور الحياة سهلة ميسورة كما يبدو من النص نفسه ، فالخبز متوافر ورخيص ، كما أن أماكن النزهة والفرحة وفرص سماع المطربين ميسورة . وربما كانت الحرية الفردية للقاهري من أبناء الشرائع الاجتماعية الدنيا هى التى جعلت الرحالة «ابن بطوطة» - بعد حوالى قرن من الزمان - يقرر أن «.. أهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ..» ، فقد شهد زينة القاهرة احتفالا بشقاء السلطان الناصر «محمد بن قلاوون» من كسر فى يده (٧٦) ، أما ما أشار اليه «ابن سعيد» من

(٧٢) ابن دقماق . الانتصار لواسطة الامصار . ج ٤ . ص ٤١ - ٤٦ ، المقرئى ، الخطط .

ج ١ ، ص ٣٦٦

(٧٤) النجوم الزاهرة ، ص ٢٩ - ٣٠

(٧٥) عاشور ، المجتمع المصرى . ص ٢٧

(٧٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٥٣

مظاهر المجون والخلاعة والشذوذ الجنسي والدعارة ، فهو أمر معروف عن الحياة الاجتماعية في القاهرة آنذاك ، وطوال عصر سلاطين المماليك ، وتؤكد المصادر والدراسات التاريخية الحديثة (٧٧) .

وقد لفت انتباه «ابن سعيد» كثرة الازهار في القاهرة وعدم انقطاعها وهو هنا يكشف عن حس فنان رقيق ، كما تحدث عن فواكه مصر ، وأشار الى أن المصريين لم يعتادوا شرب نبيذ العنب ، ولكنهم اعتادوا شرب المزر الابيض المستخرج من القمح (الجعة ، أو البوظة) ، ويبدو أن الاقبال عليه كان شديدا بحيث كان سعره يرتفع (٧٨) .

وعاد مرة أخرى للحديث عن الخمر ، والموسيقى ، «وتبرج النساء العواهر» مقارنا ذلك بما كان يحدث في بلاد المغرب (٧٩) .

هذه هي أهم الملاحظات التي دونها «ابن سعيد» عن رحلته الى القاهرة في السنوات التي شهدت غروب شمس الدولة الايوبية ، وقيام دولة سلاطين المماليك فقد توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في خضم الصراع ضد قوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٧ هـ (١٢٤٩ م) وقامت زوجته شجرة الدر بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك ، وجاء «توران شاه» ليحكم مصر خلفا لابيه الصالح أيوب ، ولكنه كان اخفاقا أيوبيا جديدا ، فاغتاله كبار المماليك بشكل مأساوي مروع ، ومع دمائه التي بددتها مياه النيل تبددت آخر مظاهر السلطة الايوبية في مصر .

في هذا الوقت العصيب كانت زيارة «ابن سعيد» للقاهرة التي كانت قد صارت بؤرة النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بمصر . وربما يفسر لنا هذا حقيقة الحيوية والحرارة التي رسمتها كلمات «ابن سعيد» للقاهرة على الرغم من كلماته الحانقة المعادية التي يمكن فهمها في ضوء الحقيقة القائلة بأن الرجل كان سليل بيت من الأمراء ، وكان صدره يضيق بزحام القاهرة وضخيمها وضيق شوارعها . بيد أن حيوية القاهرة ونشاطها الدائب فرض نفسه على قلمه بحيث كانت أوصافه وملاحظاته - في مجملها - أدق وأكثر حيوية من الرحالة الأندلسي الأخير الذي زارها قبل قرن من الزمان وهو ابن جبير

(٧٧) عاشور ، المجتمع المصري ، ص ٢٢٧ - ٢٢٢ . قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي

ص ١٣٩ - ١٤٠

(٧٨) النجوم الزاهرة ، ص ٣٠ - ٣١

(٧٩) نفسه ، ص ٣١ - ٣٢

الذى جاء الى القاهرة فى السنوات الاولى من عمر الدولة الايوبية وحين كانت المدينة ما تزال فى طريقها الى التحول من حصن للإدارة والحكم والجيش ، الى عاصمة حقيقية لمصر .

ان المقارنة بين وصف القاهرة فى رحلة ابن جببر الذى زار العاصمة المصرية فى بواكير عصر الدولة الايوبية ، ورحلة ابن سعيد ، الذى زارها فى سنوات الافول والغروب التى عانتها دولة بنى أيوب ، تكشف عن أن خط المدينة قد سار فى اتجاه معاكس لخط الدولة التى تصادفت الرحلتان مع بدايتها ونهايتها . ففى الرحلة الاولى ، كانت القاهرة تبدأ تاريخها الحقيقى عاصمة لمصر والعالم العربى الاسلامى على استحياء ، وفى الرحلة الثانية كانت القاهرة قد استكملت كل المقومات التى تجعلها عاصمة عالمية . وانعكست هذه الحقيقة فيما أشارت اليه كلمات ابن سعيد عن سكانها ، ونشاطهم الاقتصادى والاجتماعى ، وعاداتهم وتقاليدهم . وقد تكرست هذه المكانة تماما فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ هـ / ٩٢٢ هـ - ١٢٥٠ / ١٥١٧ م) . فقد صارت القاهرة عاصمة العالم الاسلامى كله ، ووفد اليها العلماء والفنانون مع المهاجرين من شرق العالم الاسلامى وغربه ، وأصبحت مركزا للتجارة العالمية ، والنشاط السياسى والدبلوماسى فى العالم المعروف آنذاك . وانعكس ذلك - بطبيعة الحال - على شكل الحياة اليومية فى شوارعها وضواحيها . بيد أن هذه قصة أخرى .

دكتور قاسم عبده قاسم